الفصل الأول

المصطلح و الأسلوب
في
التراث البلاغي

obeikandl.com

obeikandl.com

المعنى اللغوي :

في موروثنا البلاغي و النقدي طائفة من المصطلحات التي تواردت مع مصطلح التجريد على طريقة " التحول الأسلوبي " الذي نود في هذا المبحث رصده ، و استجلاء دوره البياني و البديعي على حدةٍ في لغة الشعر الجاهلي ، من بين هذه المصطلحات : " العدول " " مخالفة مقتضى الظاهر " ، و " شجاعة العربية " و ما إلى ذلك [(١)].

غير أنه من الأفضل استخدام مصطلح التجريد لذلك الأسلوب ، نظرا - كما يرى د. حسن طبل على مصطلح الالتفات ، و يصدق إلى حد بعيد على التجريد - :

" لشيوعه و كثرة تردده في هذا الموروث بالقياس إلى تلك المصطلحات من جهة و استقلاله دونها بمبحث من مباحث البلاغة لاسيما في عصورها المتأخرة من جهة أخرى ولأن معالجات البلاغيين كما سنرى قد أدت إلى تحديد طبيعة هذه الظاهرة و الكشف عن كثير من ألوانها ، و أسرارها البيانية و الجمالية من جهة ثالثة " [(٢)].

فإذا ما تتبعنا كلمة تجريد في أثناء سيرها في تاريخ اللغة و وقفنا معها عند المعالم الرئيسة لمفاهيمها المختلفة يتضح لنا الآتي :

ما أورده **الفراهيدي** (ت ١٧٠ هـ) حول معنى كلمة تجريد : " الجَرْدُ : فضاء لا نبات فيه ، و رجل أجْرَدُ : لا شعر على جسده ، و الأجْرَدُ من الخيل و الدواب : القصير الشعر و إذا خرجت السنبلة من لفائفها ، قيل : تَجَرَّدَتْ " [(٣)].

و عند ابن منظور (ت ٧١١ هـ) : " جَرَدَ الشيء يَجْرُدُهُ جَرْدًا وَ جَرَّدَهُ : قَشَرَهُ وَ جَرَدَ الجلد يَجْرُدُهُ جَرْدًا : نزع عنه الشعر ، وَالجَرَدَ الثوب أي انسحق ولان ، و السماء جَرْدَاءُ

---

(١) يراجع . ابن يعقوب المغربي : مواهب الفتاح (ضمن شروح التلخيص) ، ٤ / ٣٥٦ ، السكاكي : مفتاح العلوم ص ٣٥٤، وابن جني . الخصائص ، ٢/ ٣٦٠ : ٤٤٧ .

(٢) د. حسن طبل : أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية ، ص ١١ .

(٣) ينظر . الخليل بن أحمد الفراهيدي : (العين) ، ترتيب و تحقيق د. عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية بيروت ، ط١، ١٤٢٤هـ ، ٢٠٠٣ م ، ١ / ٢٢٨ ، ٢٢٩ .

إذا لم يكن فيها غيم ، و رجل جارُودٌ : مَشْؤُومٌ منه ، كأنه يقشر قومه ، و التجْرِيدُ : التعرية من الثياب ، وتجْرِيدُ السيف : انتضاؤه ، وَالتَّجْرِيدُ التَّشْذِيبُ ، وَانجَرَدَتِ الإبل من أوبارها إذا سقطت عنها،وجرّدَ الكتاب و المصحف:عراه من الضبط و الزيادات و الفواتح ، و كل شيء قشرته عن شيء ، فقد جَرَدْتَهُ عنه ، و المقشور : مَجْرُودٌ ، و ما قشر عنه : جُرَادَةٌ"(١).

و عند الزبيدي (ت ١٢٠٥ هـ) : " جَرَدَ القطن : حَلَجَهُ ، و رجل مُجَرَّدٌ ، كَمُكَرَّم : أخرج من ماله ، و من المجاز : قَلْبٌ أَجْرَدٌ ، أي ليس فيه غل و لا غش ، وَالجَرْدَاءُ : الصخرة الملساء "(٢). و تكاد تتفق هذه المعاجم على أن المعنى اللغوي للتجريد يدور حول : "سلب شيء من شيء ، أو عزل شيء عن شيء".

و قد ورد لفظ التجريد أو مشتقاته في الشعر الجاهلي و شعر المخضرمين بالمعنى السابق نفسه ، فقال طرفة يصف خد الناقة و مشفرها : { من الطويل }

وَخَدٌّ كَقِرْطَاسِ الشَّآمي وَ مِشْفَرٌ ... كَسِبْتِ اليَماني قَدُّهُ لم يُجَرَّدِ(٣).

و قال الأعشى مادحا قومه : { من الكامل }

جَعَلَ الإِلَـهُ طَعَامَنَا في مَالِنَا ... رِزْقًا تَضَمَّنَهُ لَنَا لَن يَنْفَدَا .

مِثْلَ الهِضَابِ جَزَارَةً لِسُيُوفِنَا ... فَإِذَا تُرَاعُ فَإِنَّها لَن تُطْرَدَا .

ضَمِنَت لَنا أَعْجَازُهُنَّ قُدورَنَا ... وَضُرُوعُهُنَّ لَنا الصَّرِيحَ الأَجْرَدَا(٤)

---

(١) ينظر : ابن منظور : لسان العرب ، تحقيق نخبة من العاملين بدار المعارف ، عبد الله علي الكبير ، محمد أحمد حسب الله ، هاشم محمد الشاذلي ، دار المعارف بمصر ، د.ت ، المجلد الأول ، ص ٥٨٧ : ٥٨٩ .

(٢) ينظر : الزبيدي : تاج العروس من جواهر القاموس ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، التراث العربي ، سلسلة تصدرها وزارة الإرشاد و الأنباء بالكويت ، طبعة ثانية مصورة ، ١٤١٢ هـ ، ١٩٩٢ م ، ٧ / ٤٨٨ : ٤٩٨ .

(٣) ديوان طرفة بن العبد : شرح الأعلم الشنتمري ، تحقيق درية الخطيب ، لطفي الصقال ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق ، ١٣٩٥ هـ ، ١٩٧٥ م ، ص ٢٣ ، القرطاس : الصحيفة البيضاء ، السبت ، بكسر السين : الجلد المدبوغ بالقرظ ، و القد : قطع الجلد ، يريد : أن خدها أبيض لاشية فيه ، و أن مشافرها ممتدة لينة كنعال السبت الذي لم ينزع منه الشعر و يسلب أي الغير المدبوغ .

(٤) ديوان الأعشى : تحقيق محمد محمد حسين ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٧، ١٤٠١ هـ ، ١٩٨٣ م ، ص٢٨١

يقول ابن الجواليقي :

" يريد أنهم فرسان ذوو نجدة يكثرون الغزو فرزقهم مما تفيء عيالهم رماحهم و قوله ملء المراجل تبيين لقوله برزق عيالنا و نصبه على البدل من موضع الباء أي ضمنت المراجل و هي القدور،الواحد مرجل و اشتقاقه من الرجل،و هي القطعة من الجراد لأنها تطبخ فيه و الصريح الأجرد اللبن الخالص أخذ من النخلة الجرداء،و هي التي لا ليف عليها و المعنى أنهم يغزون فيغنمون الإبل فيشربون ألبانها و يأكلون لحومها "(١).

و قد وردت لفظة التجريد في الحديث الشريف بالمعنى السابق نفسه أيضا ، ففي حديث صفة أهل الجنة ، يقول الرسول ـ صلى الله عليه و سلم ـ : " **يدخل أهل الجنة الجنة على صورة آدم في مثل طوله : ستون ذراعا ، جُرْد ، مُرْد ، مُكَحَّلُون ، أبناء ثلاث و ثلاثين نساؤهم أبكار ، و رجالهم مُرْدٌ** "(٢).

و قوله ـ صلى الله عليه و سلم ـ : " القلوب أربعة : قلب مصفح فذلك قلب المنافق و قلب أغلف فذلك قلب الكافر، و قلب أجْرَدْ كأن فيه سراجا يزهر فذاك قلب المؤمن و قلب فيه نفاق و إيمان فمثله كمثل قرحة يمد بها قيح و دم و مثله كمثل شجرة يسقيها

---

(٢) ابن الجواليقي : شرح أدب الكاتب ، تقديم السيد مصطفى صادق الرافعي ، مكتبة القدسي ، القاهرة ، عن نسخة دار الكتب المصرية ، ١٣٥٠ هـ ، ص ٣٨٠ .

(٣) ابن أبي شيبة : المصنف ، تحقيق حمد بن عبد الله الجمعة ، محمد بن إبراهيم اللحيدان ، مكتبة الرشد ناشرون الرياض ، ط١ ، ١٤٢٥هـ ، ٢٠٠٤ م ، أخرجه في كتاب : الجنة ، ما ذكر في صفة الجنة و ما فيها مما أعد لأهلها، ٩٩/١٢ ، حديث رقم (٣٥١٠٩) ، و ينظر: أحمد بن حنبل : المسند ، شرحه و صنع فهارسه أحمد محمد شاكر ، دار الحديث ، القاهرة ، ط١ ، ١٤١٦ هـ ، ١٩٩٥ م ، أخرجه في مسند : المكثرين من الصحابة مسند أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ ، ٥٣/٨ ، ٥٤ ، حديث رقم (٧٩٢٠) ، و ينظر الجزء السادس عشر شرحه و صنع فهارسه حمزة أحمد الزين ، مسند الأنصار ، حديث معاذ بن جبل ، ١٧٠/١٦ ، ١٧١ ، حديث رقم (٢١٩٢٣) ، ١٩١/١٦ ، حديث رقم (٢١٩٨٠) ، الترمذي : الجامع الصحيح و هو سنن الترمذي ، تحقيق و شرح إبراهيم عطوة عوض ، مكتبة البابي الحلبي ، القاهرة ، ط١ ، ١٣٨٢ هـ ، ١٩٦٢ م ، أخرجه في كتاب: صفة الجنة عن رسول الله ـ صلى الله عليه و سلم ـ ، باب ما جاء في سن أهل الجنة ، ٦٨٢/٤ ، ٦٨٣ ، حديث رقم (٢٥٤٥) ، الطبراني : المعجم الصغير ، دار الكتب العلمية ، بيروت، ١٤٠٣ هـ ، ١٩٨٣ م ، في باب الميم من اسمه محمد ، ١٧/٢ ، في باب الياء ، من اسمه يحيى ، ١٤٠/٢ ، و المرد : التمليس ، و التليين و الصقل .

ماء خبيث و ماء طيب فإما غلب عليها غلب "(١).

و في صفته ـ صلى الله عليه و سلم ـ أنه : " أجْرَدُ، ذو مسربة "(٢).

قال ابن الأثير : " الأجْرَدُ الذي ليس على بدنه شعر ، و لم يكن – صلى الله عليه و سلم – كذلك ، و إنما أراد به أن الشعر كان في أماكن من بدنه ، كالمسربة ، و الساعدين و الساقين ، فإن ضد الأجْرَد الأشعر ، و هو الذي على جميع بدنه شعر "(٣).

و المادة في هذا المعنى تتفق مع المعاني الأدبية أو الفنية التي أطلقت فيما بعد على بعض العبارات و الصور الواردة في الشعر و النثر.

و إذا تتبعنا هذه اللفظة في الأدب العربي في صدر الإسلام شعرا و نثرا وجدناها مستعملة عندهم بالمعنى نفسه كذلك . أما في النثر فكقول علي بن أبي طالب – رضي الله عنه –: " اتقوا الله تقية من شمر تجْرِيدًا ، و جد تشميرا ، و كمش (٤) في مهل ، و بادر عن وجل (٥)، و نظر في كرة الموئل (٦) و عاقبة المصدر ، و مغبة المرجع (٧) "(٨).

---

(١) ابن أبي شيبة : المصنف ، أخرجه في كتاب : الإيمان و الرؤيا ، ٣٠٨/١٠ ، حديث رقم (٣٠٩٢١) ، و في ١٠٢/١٤ ، حديث كتاب : الفتن ، من كره الخروج في الفتن و تعوذ عنها ، رقم (٣٨٣٩١) ، و ينظر : أحمد بن حنبل : المسند ، شرحه و صنع فهارسه حمزة أحمد الزين ، مسند : المكثرين من الصحابة ، مسند أبي سعيد الخدري، ٥٨/١٠ ، حديث رقم (١١٠٧١) ، الطبراني : المعجم الصغير ، باب الميم ، من اسمه موسى ، ١٠٩/٢ ، ١١٠ ، و قد أدرجه الألباني ضمن سلسلة الأحاديث الضعيفة ، في كتابه : سلسلة الأحاديث الضعيفة و الموضوعة و أثرها السيئ في الأمة، مكتبة المعارف للنشر و التوزيع، الرياض ، ط١ ، ١٤٢٢ هـ ، ٢٠٠٢ م ، مج١١،القسم الأول ، ص ٢٦٣ ، حديث رقم (٥١٥٨) .

(٢) جزء من وصف النبي ـ صلى الله عليه و سلم ـ عن الإمام علي ـ كرم الله وجهه ـ ، أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ، في كتاب : الفضائل ، باب ما أعطى الله تعالى محمدا ـ صلى الله عليه و سلم ـ ، ٦٠/١١ ، حديث رقم (٣٢٣٤٠) ، ينظر: محمد بن الخطيب التبريزي: مشكاة المصابيح ، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي للطباعة و النشر ، بيروت ، ط٢ ، ١٣٩٩ هـ ، ١٩٧٩ م ، ١٦١٢/١، ١٦١٣ ، حديث رقم (٥٧٩١) .

(٣) ابن الأثير الجزري : النهاية في غريب الحديث و الأثر ، تحقيق محمود محمد الطناحي . طاهر أحمد الزاوي ، أنصار السنة المحمدية ، د.ت ، ١ / ٢٥٦ .

(٤) الكمش : الرجل الماضي بسرعة ، و المقصود : إقبال الرجل على الله ، بتأني البصير .

(٥) الوجل : الخوف الشديد و الفزع .

(٦) الموئل : موضع الاستقرار و السكون ، و الكرة : البعث و الإحياء بعد الموت ، يريد : الدار الآخرة .

(٧) مغبة الأمر : عاقبته وجزاؤه ، و المقصود : عملك الذي سيكون عنه جزاؤك . و المقصود بالمرجع . ما يرجع إليه الإنسان بعد الفناء و يتمه اما دخول الجنة و نعيمها ، أو دخول النار و جحيمها .

(٨) الإمام علي بن أبي طالب : نهج البلاغة ، و هو مجموع ما اختاره الشريف أبو الحسن محمد الرضي بن الحسن الموسوي من كلام أمير المؤمنين أبي الحسن علي بن أبي طالب ، ضبط نصه و ابتكر فهارسه العلمية د. صبحي الصالح ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط١ ، ١٣٨٧هـ ، ١٩٦٧ م ص ٥٠٦ .

و إذا انتقلنا إلى الأدب في العصرين الأموي و العباسي وجدنا هذه المادة مستعملة عندهم في المعاني السابقة .

يقول جرير: {من الطويل}

لَقَدْ جَرَّدَ الحَجَّاجُ بِالْحَقِّ سَيْفَهُ   لكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لا يَمِيلَنْ مَائِلُ [1].

وأبو تمام : { من مخلع البسيط }

جَرَّدَ لِي مِنْ هَوَاهُ وُدًّا   صَارَ رَقِيبًا عَلَى الرَّقِيبِ [2].

خلاصة القول :

إن كلمة " تجريد " في لغتنا العربية تدور حول سلب شيء من شيء ، أو عزل شيء عن شيء . و من شأن المسلوب أو المعزول أن يكون فيه استقلالية أو خروج للمعنى عن النسق العام للكلام . وهذا ما أثر على المعنى البلاغي لهذه اللفظة .؛ و من ثم ظلت معاني هذه اللفظة مراعاة من كل أولئك الذين تعرضوا في بحوثهم للتجريد حتى تبلور تعريفه الحالي ضمن المصطلحات البلاغية الأخرى .

إذن فالمادة اللغوية أو المعجمية للتجريد تدور في عمومها . كما رأينا . حول محور دلالي واحد هو التحول أو الانحراف عن المألوف من القيم أو الأوضاع أو أنماط السلوك الأمر الذي جعل معالجات البلاغيين . كما سنرى . لاسيما المتأخرين منهم . تهدف إلى تحديد طبيعة هذا الأسلوب ، والكشف عن كثير من ألوانه ، و أسراره البيانية من جهة ثالثة .

---

(١) ديوان جرير : بشرح محمد بن حبيب ، تحقيق د.نعمان محمد أمين طه ، دار المعارف بمصر ، ط٣، د.ت ، المجلد الأول ، ص ٤٠٣ .

(٢) ديوان أبو تمام : بشرح الخطيب التبريزي،تحقيق محمد عبده عزام ، دار المعارف بمصر ، ط٣ ، ١٩٨٣، المجلد الرابع ، ص١٦٣ .

المعنى الاصطلاحي :

الأمر الملفت للانتباه أن مصطلح التجريد على كثرة تردده في موروثنا النقدي والبلاغي قد لقي قدرا غير قليل من الخلط والاضطراب (١) ، فنحن حين نتأمل مسيرة ذلك المصطلح في مؤلفات هذا الموروث نجده يلتقي بالأسلوب الذي بين أيدينا تارة ويتجاوزه إلى غيره من الأساليب البلاغية تارة أخرى ، كما أننا نجده - عند التقائه به يتسع عن دائرته حينا ويضيق عن الإحاطة به واحتواء ألوانه المتعددة حينا آخر .

" فكثيرا ما تكون الكلمات الاصطلاحية أضيق كثيرا من المدلولات التي تحملها وبخاصة كلمة مثل التجريد أو المجرد ، التي تستخدم في أكثر من مجال من مجالات المعرفة الإنسانية " (٢).

ومرد ذلك - فيما يبدو - يرجع إلى الإغراق الوصفي في البلاغة العربية ، فمن الملاحظ :

" أن الإغراق في هذا الجهد الوصفي قد أدى إلى تكاثر الأشكال البديعية التي حاولت محاصرة الصياغة على كافة مستوياتها وفي كل تحولاتها ، وهذا التكاثر أدى إلى نوع من التداخل بين كثير من الأشكال حتى أصبح للشكل الواحد أكثر من مصطلح وأصبح المصطلح الواحد يضم أكثر من شكل ، بل إن كثيرا من الأشكال يمكن نقلها إلى علم البيان أو علم المعاني ، وقد بدأ **السكاكي** ذلك عندما نقل (الالتفات) إلى (علم المعاني) "(٣).

---

(١) ينظر : السكاكي : مفتاح العلوم ، ص ٢٠٠ وما بعدها ، في اعتباره بيت امرئ القيس : تطاول ليلك .. البيت، التفاتا ، ص ٣٥٤ ، في إدخاله في التشبيه صور التجريد المختلفة، عبد الرحيم بن أحمد العباسي : معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، عالم الكتب ، بيروت ، مصورة عن طبعة المكتبة التجارية بالقاهرة ، سنة ١٣٦٧ هـ ، ١٩٤٧ م ، ١ / ١٧١ ، في خلطه بين الالتفات والتجريد ، عندما عد قول امرئ القيس : تطاول ليلك ... البيت ، التفاتا ، - وهو في تعليقه وجمعه إحدى صور التجريد - بقوله : " والشاهد فيه : الالتفات ، وهو في قوله " ليلك " لأنه خطاب لنفسه ، ومقتضى الظاهر " ليلي " بالمتكلم " .

(٢) د٠عز الدين إسماعيل : الفن والإنسان ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٣ م ، ص ٢٣٧ .

(٣) د٠محمد عبد المطلب : البلاغة العربية قراءة أخرى ، الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان ، القاهرة ، ١٩٩٧ م ، ص ٤٠٥ .

ويعد سيبويه (ت ١٨٠ هـ) . إن لم يكن أولهم . هو ممن كان له فضل السبق في تناول التجريد ، والتعرض له، وعلى الرغم من أن حديثه عنه كان موجزا شديد الاقتضاب ، وبمثال واحد ، إلا أن العلماء لم يهملوا رأيه ، وضمنوه كتبهم ونسبوا إليه فنراه في كتابه " الكتاب " (باب ما يختار فيه الرفع ويكون فيه الوجه في جميع اللغات) يقول :

" ولو قال : أما أبوك فلك أب ، لكان على قوله : فلك به أب أو فيه أب ، وإنما يريد بقوله : فيه أب مجرى الأب على سعة الكلام ، وليس إلى النصب ههنا سبيل "(١)

وذلك في إشارة إلى التجريد بحرفي الباء ، وفي ، وهما من حروف التجريد بالأدوات .

وقد أفرد له الزجاج (ت ٣١١ هـ) بابا بعنوان : (هذا باب ما جاء في التنزيل من التجريد) . في كتابه المنسوب إليه " إعراب القرآن " ، سَلَّم فيه بآراء الفارسي وحافظ على أمثلته ، مع إضافة بعض الشواهد والأمثلة الأخرى . وإن لم يشر إليه ، وقد استهله بالقول :

" وهو باب شريف لطيف يعز وجوده في كتبهم ، وذلك نحو قولهم : لئن لقيت فلانا لتلقين منه الأسد ، ولئن سألته لتسألن منه البحر؛ فظاهر هذا أن فيه من نفسه أسدا أو بحرا ، وهو عينه هو الأسد والبحر، لا أن هناك شيئا منفصلا عنه وممتازا منه وعلى هذا يخاطب الإنسان منهم نفسه حتى كأنها تقابله أو تخاطبه ، وقد يكون ذلك بحرف " الباء " و" من " وحرف " في " "(٢).

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ١ / ٣٨٩ ، ٣٩٠ .

(٢) الزجاج : إعراب القرآن ، تحقيق و دراسة إبراهيم الإبياري ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف و الترجمة والطباعة و النشر، القاهرة، ١٣٨٣ هـ ، ١٩٦٤ م ، ٢ / ٦٦٤ .

وعلى الرغم من ذلك " يبدو أن أبا علي الفارسي (ت ٣٧٧ هـ) هو أول من سمى هذا النوع بالتجريد "(١) ، كما عبر عن ذلك قول ابن أبي الحديد :

" أقول إن الحد الذي حد هذا الرجل التجريد به لم يأت فيه نص من كتاب الله تعالى ، ولا ورد عن رسول الله ، وإنما هو حد اختاره هو ، وفسر التجريد به ، فإنه حجر على أبي علي رحمه الله أن يجعل التجريد شيئا آخر ..... فأبو علي رحمه الله سماه تجريدا ، وهو غير مانع لك من اصطلاحك ولا مشاح لك في حدك الذي ذكرته للتجريد فكذلك أنت لا تجور ولا تضايقه في اصطلاحه وتجريده "(٢).

ومؤدى رأي أبي علي الفارسي في سر تسمية هذا النوع بهذا الاسم :

" أن العرب تعتقد أن في الإنسان معنى كامنا فيه كأنه حقيقته ومحصوله ، فتخرج ذلك المعنى إلى ألفاظها مجردا من الإنسان كأنه غيره ، وهو هو بعينه ، نحو قولهم : " لئن لقيت فلانا لتلقين به الأسد ، ولئن سألته لتسألن منه البحر" وهو عينه الأسد والبحر ، لا أن هناك شيئا منفصلا عنه ، أو متميزا منه ، ثم قال : وعلى هذا النمط كون الإنسان يخاطب نفسه ، حتى كأنه يقاول غيره ، كما قال الأعشى :

"وَهَلْ تُطِيقُ وَدَاعًا أَيُّهَا الرَّجُلُ" وهو الرجل نفسه لا غيره "(٣)

وهو ما اعترض عليه ابن الأثير ، ونحا فيه باللائمة على قول الفارسي ، بقوله :

" فالخطأ توجه في كلامه من وجهين :

أحدهما : أنه جعل حقيقة الإنسان عبارة عن خلقه ،

والآخر: أنه أدخل في التجريد ما ليس منه "(٤).

---

(١) د. عبد القادر حسين : أثر النحاة في البحث البلاغي ، ص ٣٣٣ .
(٢) ابن أبي الحديد : الفلك الدائر ، ص ٢١٩ ، ٢٢٠ .
(٣) ابن الأثير . المثل السائر ، ٢/ ١٦٤ ، ينظر: ابن جني : الخصائص ، ٢ / ٤٧٣ ، ٤٧٤ .
(٤) ابن الأثير : المثل السائر ، ٢/ ١٦٧ ، و ينظر التفاصيل ص ١٦٤ و ما بعدها .

والحق أن ابن الأثير قد تجاوز حد الإنصاف في نقده لأبي علي الفارسي. رحمه الله. في هذا الصدد، إذ إن أسلوب التجريد هو - كما سنرى بعد قليل - أحد الأساليب التي لا مشاحة في إثارتها للمتلقي من وجه، وكونها مبالغة في كون الشيء موصوفا بصفة و بلوغه النهاية فيها بأن ينتزع منه شيء آخر موصوف بتلك الصفة من وجه آخر، بما في بنيتها اللغوية الخاصة من خروج - غير متوقع - على مألوفه، عل هذا ما دعا أبا علي إلى اعتقاده ذلك الأمر، وعل هذا- أيضا- ما عبر عنه ابن أبي الحديد و من بعده العلوي في تصديهما لدحض آراء ابن الأثير، والذود عن مبغى الفارسي، وهو ما عبر عنه العلوي بقوله :

" فحاصل كلام الفارسي أن العرب تعتقد أن في الإنسان معنى كامنا فيها فتعتقد أنه أمر خارج عن الإنسان فتخاطبه بالخطاب والغرض غيره، فلهذا كان هذا تجريدا مشبها للأول، وهذا الذي يمكن أن يقرر عليه كلام الفارسي في تسمية ما هذا حاله تجريدا وقد عاب ابن الأثير على الفارسي هذه المقالة ووجه الخطاب عليه من وجهين : الوجه الأول منهما أنه قال : إن حقيقة الإنسان معنى كامن فيه، هو حقيقته، ولا وجه لذلك فإن المعقول من صفة الإنسان هو هذه البنية المشار إليها من غير تخصيص هناك فيها وهذا فاسد فإن الحق ما قاله الفارسي كما حكيناه عن أهل الإسلام، المعتزلة وغيرهم، وعن الفلاسفة من أن حقيقة الإنسان هي أمر حاصل فيه، ولم ينكره ابن الأثير إلا لأنه قليل الخلطة بالمباحث الكلامية والعلوم العقلية. ولو اطلع على مقالة العقلاء من المسلمين والفلاسفة واضطراب أقوالهم فيها، لم ينكر على الفارسي هذه المقالة ولتحقق يقينا لا شك فيه أن في الزوايا خبايا، وأن في الخبايا خفايا. الوجه الثاني أنه قال : إنه قد أدخل في التجريد ما ليس منه، وهذا فاسد أيضا فإنه إنما تحقق مما قلناه من أن حقيقة الإنسان أمر مخالف لهذه البنية المدركة المحسوسة عقل التجريد وكأنها هي

المخاطبة بالخطابات ، والمراد غيرها كما قلناه في التجريد المحقق من أن الخطاب موجه إلى غيرك و أنت في الحقيقة تريد به نفسك "(١).

و قد أفرد له ابن جني (ت ٣٩٢ هـ) بابا ، قدم له بقوله :

" اعلم أن هذا فصل من فصول العربية طريف حسن ، و رأيت أبا علي رحمه الله به غريا معنيا ، و لم(يفرد له) بابا ، لكنه وسمه في بعض ألفاظه بهذه السمة فاستقريتها منه و أنقت لها . و معناه أن (العرب قد تعتقد) أن في الشيء من نفسه معنى آخر كأنه حقيقته و محصوله ، و قد يجري ذلك إلى ألفاظها لما عقدت عليه معانيه "(٢).

ثم جاءت مرحلة الخلط و الاضطراب ، و فيها اعتبر التجريد ضمن التشبيه " و أول من اعتبر التجريد ضمن التشبيه هو الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) حين تحدث عن المبالغة في التشبيه و ضرب أمثلة من التشبيه البليغ و أمثلة من التجريد جعلها ضمن التشبيه "(٣) ، مثل :

"إن لقيته لقيت به أسدا ..... و إن لقيته ليلقينك منه الأسد"(٤).

و ذلك بقوله :

" و ههنا أصل يجب ضبطه ، و هو أن جعل المشبه و المشبه به على ضربين : أحدهما : تنزله منزلة الشيء تذكره بأمر قد ثبت له ، فأنت لا تحتاج إلى أن تعمل في إثباته و تزجيته ، و ذلك حيث تسقط ذكر المشبه من البين ، و لا تذكره بوجه من الوجوه كقولك " رأيت أسدا " ، و الثاني : أن تجعل ذلك كالأمر الذي يحتاج إلى أن تعمل في إثباته و تزجيته ، و ذلك حيث تجري اسم المشبه به خبرا على المشبه ، فتقول : " زيد أسد و زيد هو

---

(١) العلوي : الطراز ، ٣ / ٧٧ ، ٧٨ .
(٢) ابن جني : الخصائص ، ٢ / ٤٧٣ ، ٤٧٤ .
(٣) د. عبد الله علي محمد حسن : صور المبالغة عند السجلماسي ، ص ٣٦ .
(٤) ينظر : عبد القاهر الجرجاني - دلائل الإعجاز ، ص ٦٨ ، ينظر : أسرار البلاغة ، ص ٣٣٤ : ٣٣٦ .

الأسد " . أو تجيء به على وجه يرجع إلى هذا كقولك : " إن لقيته لقيت به أسدا و إن لقيته ليلقينك منه الأسد " . فأنت في هذا كله تعمل في إثبات كونه " أسدا " أو " الأسد " . و تضع كلامك له . و أما في الأول فتخرجه مخرج ما لا يحتاج فيه إلى إثبات و تقرير. و القياس يقتضي أن يقال في هذا الضرب . أعني ما أنت تعمل في إثباته و تزجيته : أنه تشبيه على حد المبالغة ، و يقتصر على هذا القدر ، و لا يسمى " استعارة " " (١).

و قوله : فإنه مما لا وجه لتسميته استعارة . ألا تراهم قالوا : " لئن لقيت فلانا ليلقينك منه الأسد " فأتوا به معرفة على حده إذا قالوا : " احذر الأسد ! " . و قد جاء على هذه الطريقة ما لا يتصور فيه التشبيه ، فيظن أنه استعارة ، و هو قوله عز و جل(لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ){ فصلت ٢٨ } ، والمعنى : .و الله أعلم. أن النار هي دار الخلد ، و أنت تعلم أن لا معنى ههنا لأن يقال : " إن النار شبهت بدار الخلد " ، إذ ليس المعنى على تشبيه النار بشيء يسمى " دار الخلد " ، كما تقول في زيد : " إنه مثل الأسد " ، ثم تقول : " هو الأسد " و إنما هو كقولك : " النار منزلهم و مسكنهم ". نعوذ بالله منها ... و الاسم في قولك:" لقيت به أسدا " أو" لقيني منه الأسد " ، لا يتصور جريه على المذكور بوجه ، لأنه ليس بخبر عنه و لا صفة له ، و لا حال ، و إنما هو بنفسه مفعول " لقيت " و فاعل لقيني " " (٢).

و يرى د. شوقي ضيف أن عبد القاهر " يقف عند التجريد في مثل " لقيت به أسدا " و " رأيت منه ليثا " و ينفي أن يكون ذلك استعارة ، و كأنه يجعله تشبيها ، على أنه ذكر أن الآية الكريمة في الكفار و النار (لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ) { فصلت ٢٨ } ليس فيها استعارة و لا تشبيه . إنما كل ما هناك أنه انتزعت من النار دار الخلد ، و جعلت معدة للكفار تهويلا و مبالغة . و مما يجري هذا المجرى في امتناع تصور التشبيه و الاستعارة في التجريد قولك

---

(١) عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ، ص ٦٨ .
(٢) ينظر : عبد القاهر الجرجاني : أسرار البلاغة ، ص ٣٣٤ : ٣٣٦ .

عن شخص كريم إنه "لا يعطي بكف بخيل" تريد أنه يعطي عطاء واسعا بكف كريم. وهو تعبير واضح عن صفة "(١).

أما الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) فقد تناول التجريد تناولا بلاغيا ، موجزا ، واصلا إياه بآي القرآن الكريم ، مستشهدا ما أمكن . بالشواهد الشعرية و كلام العرب ، و من ذلك وقوفه عند آية الفرقان :(... رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ...) {الفرقان ٧٤} ، و تفسيره لمعنى (مِن) في قوله تعالى : (...مِنْ أَزْوَاجِنَا...) بقوله :

" يحتمل أن كون بيانية كأنه قيل : هب لنا قرة أعين ثم بينت القرة و فسرت بقوله : (مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا) و معناه أن يجعلهم الله لهم قرة أعين و هو من قولهم : رأيت منك أسدا أي أنت أسد "(٢)،و هي إشارة إلى من التجريدية ، و كأنها عنده تفيد التشبيه .

و على هذا النحو استمر الزمخشري في تناوله لبعض ألوان البديع المعنوية في تفسيره موجزا القول دون عناية ببسط الكلام فيها أو تفصيله ، ذلك لاعتقاده أنها :

" تأتي على هامش المباحث في علمي المعاني الإضافية و البيان "(٣). إلى أن حل عصر الجمود البلاغي ، كما عبر عنه د.شوقي ضيف بقوله :

" إن العصور المتأخرة منذ عصر " الفخر الرازي " و " السكاكي " لم تستطع أن تضيف إلى مباحث البلاغة مباحث جديدة من شأنها أن تبقي لها على ازدهارها الذي رأيناه عند عبد القاهر و الزمخشري ، لسبب طبيعي و هو ما ساد في هذه العصور من الجمود لا في البلاغة فحسب بل أيضا في الشعر و النثر ، و حقا صاغ السكاكي قواعد الزمخشري و عبد القاهر صياغة علمية ، ولكن هذه الصياغة نفسها كانت من أهم الأسباب التي أشاعت الجمود بل العقم في البلاغة ، إذ تحولت إلى قواعد متحجرة ، و أصبح على البلغاء

---

(١) د.شوقي ضيف : البلاغة تطور و تاريخ ، ص ٢١١ .
(٢) الزمخشري : الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل،دار المعرفة،بيروت،د.ت، ٣ / ١٠٥
(٣) د.شوقي ضيف : البلاغة تطور و تاريخ ، دار المعارف بمصر ، ط٣ ، د.ت ، ص ٢٧٠ .

بعد ذلك شرحها أو تلخيصها ثم شرح التلخيص مع العودة أحيانا إلى عبد القاهر والزمخشري لتحرير بعض المسائل، ومع التغلغل في مباحث فلسفية ومنطقية وكلامية وأصولية، وهي مباحث ظلت تتسلق على شجرة البلاغة حتى خنقتها خنقا، وحتى أصبحنا لا نجد إلا كلاما معادا مكررا، لا ينمي ذوقا ولا يربي ملكة "(١).

ولعل من أهم رواد هذه المرحلة السكاكي(ت ٦٢٦ هـ) وكتابه "مفتاح العلوم" هو غرة مصنفاته، وقد قسمه إلى ثلاثة أقسام أساسية، تحدث في القسم الأول منها عن علم الصرف وما يتصل به من الاشتقاق الصغير والكبير والأكبر، وجعل القسم الثاني لعلم النحو، أما القسم الثالث فخص به علمي المعاني والبيان، وألحق بهما نظرة في الفصاحة والبلاغة ودراسة المحسنات البديعية اللفظية والمعنوية "(٢).

"ومن الحق أن تلخيصه أدق من تلخيص الفخر الرازي، وكأنما كان عقله أكثر دقة وضبطا للمسائل، بل لقد كان أكثر تنظيما وأشد تقسيما، مع ترتيب المقدمات وإحكام المقاييس وصحة البراهين "(٣).

أما في تعرضه للتجريد، فنراه، مقتديا بعبد القاهر، يدخل في التشبيه صور التجريد المختلفة، ويظهر ذلك في قوله:

"وإنا عرفت أن وجود طرفي التشبيه يمنع عن حمل الكلام على غير التشبيه عرفت أن فائد كلمة التشبيه لا تؤثر إلا في الظاهر، وعرفت أن نحو: رأيت بفلان أسدا ولقيني منه أسد، وهو أسد في صورة إنسان، وإذا نظرت إليه لم تر إلا أسدا، وإن رأيته عرفت جبهة

(١) د.شوقي ضيف : البلاغة تطور و تاريخ، ص ٣٥٨ .
(٢) نفسه : ص ٢٨٧ .
(٣) نفسه : ص ٢٨٨ .

الأسد ، ولئن لقيته ليلقينك منه الأسد ، و إن اردت أسدا فعليك بفلان و إنما هو أسد وليس هو آدميا بل هو أسد ... كل ذلك تشبيهات لا فرق إلا في شأن المبالغة "(١).

و أما حد التجريد عند ابن الأثير (ت ٦٣٧ هـ) فإنه :

" إخلاص الخطاب لغيرك ، و أنت تريد به نفسك ، لا المخاطب نفسه "(٢).

و هو و إن كان يعرض لأساليب التجريد المختلفة إلا أنه ينظمها كذلك في التشبيه ويتجلى ذلك من خلال اعتراضه على بعض أقوال أبي علي الفارسي رحمه الله في التجريد، فتراه ينكر على أبي علي الفارسي رحمه الله اعتماده بعض صور التجريد من مثل قوله :

" و أما الأول و هو قوله " لئن لقيت فلانا لتلقين به الأسد، ولئن سألته لتسألن منه البحر " فإن هذا تشبيه مضمر الأداة ، إذ يحسن تقدير أداء التشبيه فيه ، و بيان ذلك أنك تقول : " لئن لقيت فلانا لتلقين منه كالأسد ، ولئن سألته لتسألن منه كالبحر " وليس هذا بتجريد ، لأن حقيقة التجريد غير موجودة فيه ، و إنما هو تشبيه مضمر الأداة ، ألا ترى أن المذكور هو كالأسد ، و هو كالبحر ، وليس ثم شيء مجرد عنه "(٣).

وقد علق ابن أبي الحديد (ت ٦٥٦ هـ) على هذا الأمر بقوله :

" معلوم أن هذه الاصطلاحات و المواصفات موكولة إلى آراء العقلاء و اختياراتهم فأبو علي رحمه الله قد اختار أن يسمي قولهم (إذا سألت زيدا سألت البحر) تجريدا وقد شرح ذلك و أوضحه بقوله إن ظاهر هذه اللفظة أن المسئول غير زيد ، لأن ألفاظها تقتضي ذلك ، ألا ترى أنك تقول صحبت زيدا فاقتبست منه العلم ، و قتلت فلانا فأخذت منه

---

(١) السكاكي : مفتاح العلوم ، ص ٣٥٤ .
(٢) ابن الأثير : المثل السائر ، ٢ / ١٥٩ .
(٣) نفسه : ٢ / ١٦٥ .

السلب . فيقضي ظاهره بأن العلم غير المصحوب ، و أن السلب غير المقتول ، فهكذا يقتضي ظاهر قوله سألته فسألت منه البحر ، أن البحر غيره "(١).

و بينا نرى ابن الأثير في موضع آخر يبطل على أبي علي الفارسي رحمه الله قصره التجريد على الإنسان ، و تخصيصه به عن غيره من المخلوقات ، بالقول :

" فإن الصورة التي أوردها في الإنسان ، و زعم أن العرب تعتقد أن ذلك معنى كامن فيه قد أوردنا مثلها في الأسد ، فتخصيصه ذلك بالإنسان باطل . و كلا الصورتين ليس بتجريد ، و إنما هو تشبيه مضمر الأداة "(٢).

نجد ابن أبي الحديد ، يدحض قول ابن الأثير ، بقوله :

" أقول إن أبا علي لم يرد هذا الاستعمال مقصورًا على الإنسان فقط ، و لا صرح بذلك و لا كني عنه ، و لا هو مفهوم من فحوى قوله إن العرب تعتقد في الإنسان معنى كامنا فيه لا يدل على نفي الحكم عما عداه ، و إنما مثل بالإنسان ، لأنه أشهر ، و لأن استعماله فيه و دورانه على ألسنتهم و في ألفاظهم أكثر "(٣).

أما بدر الدين بن مالك (ت ٦٨٦ هـ) ، فالتجريد عنده هو:

" أن تدل على أن الشيء بليغ في وصف بدعوى ما يستلزمه صحة استخلاص موصوف بها منه ، كما تقول : لي من فلان صديق حميم ، على دعوى أنه قد بلغ من الصداقة مبلغا صح أن يستخلص منه مثله فيها "(٤).

---

(١) ابن أبي الحديد : الفلك الدائر ، ص ٢١٩ .
(٢) ابن الأثير : المثل السائر ، ٣/ ١٦٥ .
(٣) ابن أبي الحديد : الفلك الدائر ، ص ٢٢٠ .
(٤) بدر الدين بن مالك : المصباح في المعاني و البيان و البديع ، تحقيق حسني عبد الجليل يوسف ، مكتبة الآداب القاهرة ، ط١ ، ١٤٠٩ هـ ، ١٩٨٩ م ، ص ٢٣٦ .

وقد عرفه الخطيب القزويني (ت ٧٣٩ هـ) بأنه :

" أن ينتزع من أمر ذي صفة أمر آخر مثله في تلك الصفة ، مبالغة في كمالها فيه "(١).

وقال العلوي (ت ٧٤٩ هـ) عنه :

" أما في مصطلح علماء البيان فهو مقول على إخلاص الخطاب إلى غيرك و أنت تريد به نفسك ؛ و قد يطلق على إخلاص الخطاب على نفسك خاصة دون غيرها ، و هو من محاسن علوم البيان و لطائفه . و قد استعمل على ألسنة الفصحاء كثيرا فصار مقولا على هذين الوجهين "(٢).

وعند السبكي (ت ٧٧٣ هـ) هو:

" عبارة عن أن ينتزع من أمر ذي صفة أمر آخر مثله في تلك الصفة على سبيل المبالغة في كمال الصفة فيه حتى أنه ليتجرد منه مثله فيها "(٣).

و قال سعد الدين التفتازاني (ت ٧٩١ هـ) هو :

"أن يجرد المتكلم نفسه من ذاته و يجعلها مخاطبة لنكتة"(٤)

و قد عرفه الزركشي (ت ٧٩٤ هـ) بالقول :

" هو أن تعتقد أن في الشيء من نفسه معنى آخر، كأنه مباين له ، فتخرج ذلك إلى ألفاظه بما اعتقدت ذلك "(٥).

---

(١) القزويني : الإيضاح ، ١ /٥١٢ ، و ينظر: التلخيص ، ص ٣٦٨ .
(٢) العلوي : الطراز ، ٣ / ٧٢ ، ٧٣ .
(٣) بهاء الدين السبكي : عروس الأفراح (ضمن شروح التلخيص) . ص ٣٤٨ .
(٤) سعد الدين التفتازاني : المطول على التلخيص ، مطبعة أحمد كامل ، ١٣٣٠ هـ ، ص ٤٣٣ .
(٥) الزركشي:البرهان في علوم القرآن ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث،القاهرة،د.ت،٣ / ٤٤٨

و قال السيد الشريف الجرجاني (ت ٨١٦ هـ) :

" المقصود من التجريد المبالغة في كون الشيء موصوفا بصفة و بلوغه النهاية فيها بأن ينتزع منه شيء آخر موصوف بتلك الصفة "(١).

ولم يضف السيوطي (ت ٩١١ هـ) جديدا على القزويني في تعريفه للتجريد ، فنراه يشير إليه بقوله :

" التجريد أن ينتزع من أمر ذي صفة أمر آخر مثله فيها مبالغة في كمالها أي الصفة (فيه) أي الأمر كقولك لي من فلان صديق (حميم) أي بلغ من الصداقة حدا صح معه أن يستخلص منه آخر مثله فيها "(٢).

وعند ابن يعقوب المغربي (ت ١١١٠ هـ) :

" التجريد هو أن يعبر عن معنى مجرد عن معنى آخر مع اعتبار أن المجرد شيء آخر "(٣).

أما عند المحدثين من البلاغيين و الأسلوبيين العرب ، نجد منهم من تعرض له بالقول:

" هو أن تعمم فكرة أو شيئا لغاية الوصول إلى انعدام كل خاصية ملموسة حسية فيه فيصبح إذن مسحوبا على كل ما هو ملموس حي بقطع النظر عن وجوده ضمن واقع زماني و مكاني محدد "(٤).

---

(١) السيد الشريف : حاشية السيد الشريف الجرجاني على المطول ، ص ٤٣٣ .
(٢) السيوطي : إتمام الدراية لقراء النقاية الجامع لأربعة عشر علما ، ضمن كتاب : (مفتاح العلوم) ، للسكاكي ، دار الكتب العلمية، بيروت ، د.ت ، ص ١٦٠ ، و ينظر : شرح عقود الجمان ، ١٢١ .
(٣) ابن يعقوب المغربي : مواهب الفتاح (ضمن شروح التلخيص) ، ص ٣٥٣ .
(٤) د. عبد السلام المسدي : الأسلوبية و الأسلوب ، الدار العربية للكتاب ، ط ٣ ، طرابلس ، د.ت ، ص ١٤٥ .

و هو تعريف ينحى بالتجريد منحىً فلسفيا ، يهدف من خلاله المبدع إلى إقرار حقيقة شعورية ما ؛ عن طريق تعميمها و سحبها على كل ما هو مادي ملموس ، يشارك المبدع حالته ، و يصطبغ بأحاسيسه ، بقطع النظر عن القيود الزمانية أو المكانية المحددة .

و بعد فإذا كان المعنى الاصطلاحي لكلمة " تجريد " هو : " أن ينتزع من أمر ذي صفة أمر آخر مثله في تلك الصفة مبالغة في كمالها "(١) ، فإن هناك ارتباطا بين هذا المعنى الاصطلاحي و المعنى اللغوي للكلمة و كذلك جذرها اللغوي و هو : " سل السيف من غمده خروج السنبلة من لفائفها ، و التعرية من الثياب "(٢) ، حيث يلجأ المبدع بعض الأحيان ، في طريقة التعبير عن أفكاره و مشاعره إلى التأول عن القاعدة أو النسق العام للكلام ، ما يجعله ينتزع من أمر ذي صفة أمر آخر مثله في تلك الصفة ، خروجا على بنية الجملة ، ذلك بقصد التوسع أو المبالغة .

على هذا يمكننا القول ، في ضوء ما تقدم ، أن العلاقة التي تجمع بين المعنيين اللغوي و الاصطلاحي لكلمة " تجريد " علاقة قوية وثيقة تقترب من التطابق .

" و في كل أسلوب تجريد فلابد لك من ملاحظة أربعة أمور هي :

(أ) المجرد منه ، و هو الموصوف .

(ب) المجرد ، و هو الفرد الكامل الذي انتزعته من الموصوف .

(ج) الصفة المراد بيان كمالها في الموصوف .

(د) كمال تلك الصفة "(٣).

و قد اختلفت طرائق البلاغيين ، بعد ذلك ، في تناولهم لمصطلح التجريد و تباينت نظراتهم إليه على نحو يؤكد ما سبق أن لاحظناه من قبل أن مصطلح التجريد قد تعرض في

---

(١) القزويني : الإيضاح ، ١ / ٥١٢ ، السيوطي : شرح عقود الجمان ، ص ١٢١ .

(٢) ينظر ، ابن منظور : لسان العرب ، المجلد الأول ، ص ٥٨٧ ؛ ٥٨٩ .

(٣) د. عبد العظيم المطعني : البديع من المعاني و الألفاظ ، د.ن ، ط٣ ، د.ت ، ص ٩٣ .

مسيرته البلاغية لغير قليل من التذبذب و الاضطراب ، و نود ـ فيما يلي ـ أن نتوقف إزاء ثلاث من نقاط هذا الاختلاف كي نجلي وجه الخلاف حولها ، و تلك النقاط هي :

(أ) مجال التجريد ٠

(ب) وظيفته ٠

(ج) موقعه في خريطة البحث البلاغي ٠

* * *

(أ) مجال التجريد :

من البلاغيين من جرى على نهج **ابن الأثير** في تضييق دائرة التجريد و قصرها على لونين من ألوان الظاهرة هما : " التجريد المحض و التجريد غير المحض " ، و منهم من ذهب إلى توسيع تلك الدائرة حتى شملت ـ إلى جانب هذين اللونين ـ ألوانا أخرى تماثله في مسلكه التعبيري ٠

أما الفريق الأول فهو جمهور البلاغيين أمثال : **العلوي** (ت ٧٤٩ هـ) ، فقد قسم التجريد في كتابه " الطراز المتضمن لأسرار البلاغة و علوم حقائق الأعجاز " قسمين بقوله :

" و قد استعمل على ألسنة الفصحاء كثيرا فصار مقولا على هذين الوجهين فلنقصر الكلام عليهما ، و نذكر له تقريرين : **(التقرير الأول في التجريد المحض)** : و هو أن تأتي بكلام يكون ظاهره خطابا لغيرك و أنت تريده خطابا لنفسك فتكون قد جردت الخطاب عن نفسك و أخلصته لغيرك ، فلهذا يكون تجريدًا محققا ..... فهذا و ما شاكله من أحسن ما يوجد في التجريد ، ألا تراه في جميع هذه الخطابات ظاهرها يشعر بأنه يخاطب غيره و الغرض خطاب نفسه ، و هذا هو السر و اللباب في التجريد كما أسلفنا تقريره **(التقرير الثاني في بيان التجريد غير المحض)** : و هو أن تجعل الخطاب لنفسك على جهة

الخصوص دون غيرها ، و التفرقة بين هذا و الأول ظاهرة فإنك في الأول جردت الخطاب لغيرك و أنت تريد به نفسك ، فإطلاق اسم التجريد عليه ظاهر بخلاف الثاني ، فإنه خطاب لنفسك لا غير، و إنما قيل له تجريد لأن نفس الإنسان لما كانت منفصلة عن هذه الأبعاض و الأوصال ، صارت كأنها منفصلة عنها فلهذا سمي تجريدا "(١).

أما **الفريق الثاني** فمن أبرز أعلامه **الخطيب القزويني** (ت ٧٣٩ هـ)و البلاغيون المتأخرون الذين عنوا بشرح كتاب " التلخيص " (٢).

فقد قسم **الخطيب القزويني** التجريد في كتابه " التلخيص في علوم البلاغة " أقساما بقوله : " و هو أقسام : منها : نحو قولهم : لي من فلان صديق حميم ، أي بلغ فلان من الصداقة حدا صح معه أن يستخلص منه آخر مثله فيها ، و منها نحو قولهم : لئن سألت فلانا لتسألن به البحر، و منها نحو قولهم : { من الطويل }

وَشَوهَاءَ تَعْدُو بِي إِلى صَارِخِ الوَغَى ... بِمُسْتَلئِمٍ مِثْلِ الْفَنِيقِ الْمُرَحَّلِ

و منها نحو قوله تعالى :("... لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ ...")[فصلت ٢٨] ، أي في جهنم و هي دار الخلد ، و منها نحو قوله : { من الكامل }

فَلَئِنْ بَقِيتُ لأَرْحَلَنَّ بِغَزْوَةٍ ... تَحْوِي الْغَنَائِمَ أَوْ يَمُوتَ كَرِيمُ .

و قبل تقديره أو يموت مني كريم ؛ و فيه نظر، و منها نحو قوله : { من المنسرح }

يَا خَيْرَ مَنْ يَرْكَبُ الْمَطِيَّ وَ لا ... يَشْرَبُ كَأْسًا بِكَفِّ مَنْ بَخِلا .

و منها مخاطبة الإنسان نفسه ، كقوله : { من البسيط }

لا خَيْلَ عِنْدَكَ تُهْدِيهَا وَ لا مَالُ ... فَلْيُسْعِدِ النُّطْقُ إِنْ لَمْ يُسْعِدِ الْحَالُ"(٣).

---

(١) العلوي : الطراز ، ٣ / ٧٣ : ٧٥ .
(٢) ينظر : شروح التلخيص ، ٤ / ٣٤٨ و ما بعدها .
(٣) القزويني : التلخيص ، ص ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، و ينظر : الإيضاح ، ١ / ٥١٢ : ٥١٤ .

وإلى هنا يظهر لنا :

" ١. أن التجريد نوع من أنواع المبالغة في الوصف .

٢. أنه إما بوساطة حرف الجر : من .في .الباء و تدخل ثلاثتها على المنتزع منه إلا إذا كانت الباء للمعية فتدخل على المنتزع . و إما بوساطة الكناية أو بمخاطبة المرء نفسه . و قد يكون بدون وساطة " (١).

ذلك لأن " الانتزاع إما أن يكون بحرف أو بدونه و الحرف إما من أو الباء أو في و الباء إما داخلة على المنتزع منه أو على المنتزع و ما يكون بدون حرف إما أن يكون لا على وجه الكناية أو على وجهها ثم هو إما انتزاع من غير المتكلم أو انتزاع من المتكلم نفسه "(٢).

بينما نجد السجلماسي في تناوله للتجريد يقسمه قسمين : بسيط و مركب ، " و هو في هذا يختلف عن مدرسة الخطيب و التقسيم الذي ذكره السجلماسي يعتبر جديدا بالنسبة للدرس البلاغي " (٣) ، أما البسيط فقد عرفه السجلماسي بقوله :" أن يرد بمجرده من غير مقارنة معنى آخر " (٤) ، و المركب فقد وضحه بأنه : " يرد لا بمجرده بل مقارنة معنى التشبيه ، فقوته إذن قوة التشبيه و هو معنى التركيب الذي أردناه " (٥).

أما الأول: هو ما اصطلح علماء البلاغة على تسميته بالتجريد بحروف مخصوصة و هي الباء ، في ، و من (٦) . " و ذكر السجلماسي نماذج لما ذهب إليه ولكنه لم يوضح تلك النماذج ولم يشرح ما فيها من تجريد " (٧).

---

(١) د٠عبد العظيم المطعني : البديع من المعاني و الألفاظ ، ص ٩٦ .
(٢) محمد بن عرفة الدسوقي : حاشية الدسوقي(ضمن شروح التلخيص) ، ٤ / ٣٤٩ .
(٣) د٠عبد الله علي محمد حسن:صور المبالغة عند السجلماسي ص٣٣ .
(٤)السجلماسي : المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، تقديم و تحقيق علال الغازي ، مكتبة المعارف، الرباط ط١ ١٤٠١ هـ ، ١٩٨٠ م ، ص ٢٧٩ .
(٥) نفسه : ص ٢٧٩ .
(٦) ينظر : عبد المتعال الصعيدي : بغية الإيضاح ، ٤ / ٤١ ، السيوطي : شرح عقود الجمان ، ص ١٢١ .
(٧) د٠عبد الله علي محمد حسن:صور المبالغة عند السجلماسي ص٣٣ .

أما الثاني، " فقوته إذا قوة التشبيه والمقصد بالتشبيه هنا هو التشبيه البليغ الذي حذفت منه الأداة ووجه الشبه " (١).

وقد " امتزج التشبيه البليغ والتجريد عند **الإمام عبد القاهر** والغرض منه المبالغة وهذا ما اعتبره **السجلماسي** وبعد **عبد القاهر** نص **السكاكي** صراحة على أن التشبيه البليغ والتجريد كلاهما داخل ضمن التشبيه " (٢).

لقد كان لتوسيع دائرة التجريد على هذا النحو لدى **الخطيب القزويني** أثره على ما يبدو لدى بعض البلاغيين الذين درسوه بعده، يتجلى ذلك على سبيل المثال في تأكيد **عبد القادر البغدادي** (ت ١٠٩٣ هـ) على معنى التجريد بأنه:

" تجريد المعنى المراد عما قام به، تصويرا له بصورة المستقل مع إثبات ملابسة بينه وبين القائم به بأداة وسياق " (٣).

والحق أن هذا الاتجاه الذي سار عليه **الخطيب القزويني** نحو مجال التجريد في مسيرة البحث البلاغي هو، فيما يرى الباحث، اتجاه صائب في ضوء ما لاحظناه من قبل من دوران الدلالة اللغوية للتجريد حول معنى الخروج أو التحول عن المألوف، إذ من الطبيعي، بناءً على ذلك، أن تتسع دلالة التجريد (في معناه الاصطلاحي) لتشمل ظاهرة الخروج أو التحول الأسلوبي بكل تجلياتها أو صورها المتعددة، ولعل هذا هو ما عناه بعض البلاغيين المتأخرين الذين تحدثوا عن التجريد بوصفه نوعًا من العدول، وذلك في معرض الحديث عن التجريد بالكناية في قول **الأعشى**: { من المنسرح }

---

(١) نفسه : ص ٣٥، ٣٦.
(٢) نفسه : ص ٣٦.
(٣) عبد القادر البغدادي : خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٤٠٩ هـ، ١٩٨٩ م، ١ / ١٨٧.

يَا خَيْرَ مَنْ يَرْكَبُ الْمَطِيَّ وَ لا يَشْرَبُ كَأْسًا بِكَفِّ مَنْ بَخِلا (١)

بالقول : " إن التجريد مقصود لدليل من الأدلة و أن المجرد هو المكني عنه و قد بين ذلك بأن العدول عن الإضمار بأن يقول لا يشرب بكفه حال كونه بخيلا مثلا إلى المدح بوصف الكرم بطريق الإظهار يدل على قصد المبالغة في المدح لأنها أنسب به كما تقدم" (٢).

على أن الخلاف في تراثنا البلاغي حول تحديد مجال التجريد لم يقتصر على حصره أو عدم حصره في نطاق الضمائر، بل امتد ليشمل الخلاف بعد ذلك على رأيين :

الرأي الأول : و هو ما جرى عليه **عبد القاهر الجرجاني** و تابعه **السكاكي** ، و مؤداه أن التشبيه البليغ و التجريد كلاهما داخل ضمن التشبيه (٣).

أما الرأي الثاني : و هو ما جرى عليه جمهور البلاغيين ، فمؤداه أن التجريد يتحقق في سبعة صور مختلفة (سبق ذكرها) ، لا تدخل كلها ضمن التشبيه ، و لعل هذا ما عبر عنه **التفتازاني** (ت ٧٩١ هـ) بقوله :

" و زعم بعضهم أن من التجريدية و الباء التجريدية على حذف المضاف ، فمعنى قولهم : لقيت من زيد أسدا ، لقيت من لقائه أسدا ، و الغرض تشبيهه بالأسد ، و كذا معنى لقيت به أسدا ، لقيت بلقائه أسدا ، و لا يخفى ضعف هذا التقدير في مثل قولنا لي من فلان

---

(١) ديوان الأعشى : ص ٢٨٥ .
(٢) ابن يعقوب المغربي : مواهب الفتاح (ضمن شروح التلخيص) ، ٤ / ٣٥٦ .
(٣) ينظر : د. عبد الله علي محمد حسن : صور المبالغة عند السجلماسي ، ص ٣٦ .

صديق حميم ؛ لفوات المبالغة في تقدير حصل لي من حصوله صديق "(١).

و قد اختلف البلاغيون كذلك حول تحديد العلاقة التي تجمع بين التجريد و الالتفات تلك العلاقة التي عبر عنها السبكي بقوله :

" إن بينهما عموما و خصوصا من وجه ، فيوجد التجريد دون الالتفات كقولك : رأيت منه أسدا ، و مثل " تطاول ليلك " على رأي الجمهور ، و الالتفات دون التجريد نحو : تكلفني ليلى " و نحو : " فسقناه " { فاطر٩ } ، و التفات و تجريد نحو : " فَصَلِّ لِرَبِّكَ ..." { الكوثر٢ } و لا واحدا منهما كغالب القرآن "(٢).

و بذلك فإن الالتفات لا ينافي التجريد بمعنى أنه يجوز اجتماعهما في مادة واحدة قصدا .

بينما نجد من البلاغيين من يرى أنه لا يمكن اجتماعهما إلا على سبيل البدلية و يعلل ذلك بأن :

" المقصود من الالتفات المشهور عند الجمهور : ما عرفت إرادة معنى واحد في صور متفاوتة ؛ استجلابا لنشاط السامع له ، و استدرارا لإصغائه إليه ، و المقصود من التجريد المبالغة في كون الشيء موصوفا بصفة ، و بلوغه النهاية فيها ، بأن ينتزع منه شيء آخر موصوف بتلك الصفة ، فمبنى الالتفات على ملاحظة اتحاد المعنى ، و مبنى التجريد على اعتبار التغاير ادعاء . فكيف يتصور اجتماعهما ؟ نعم ربما أمكن حمل الكلام على كل واحد منهما بدلا عن الآخر ، و أما أنهما مقصودان معا فكلا . مثلا : إذا عبر المتكلم عن نفسه بطريق الخطاب أو الغيبة ، فإن لم يكن هناك وصف يقصد المبالغة في اتصافه به لم يكن ذلك تجريدا أصلا ، و إن كان هناك وصف يحتمل المقام المبالغة فيه ، فإن انتزع من

(١) سعد الدين التفتازاني : المطول ، ص ٤٣٢ .
(٢) بهاء الدين السبكي : عروس الأفراح (ضمن شروح التلخيص) . ١ / ٤٧٦ .

نفسه شخصا آخر موصوفا به فهو تجريد ، وليس من الالتفات في شيء ، وإن لم ينتزع بل قصد مجرد الافتنان في التعبير عن نفسه كان التفاتا عند الجمهور أو على مذهب السكاكي "(١).

ومعنى هذا أن : " من المواد ما يصلح لقصد التجريد فقط ، ومنها ما يصلح للالتفات فقط ، ومنها ما يصلح لهما معا ، فالأول كما تقدم في قولهم " لي من فلان صديق حميم " ، إذ لا معنى للالتفات فيه لاتحاد الطريقتين فيه إذ هما معا غيبة ، والثاني كقوله تعالى(إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ) "{الكوثر٢} إذ لا معنى للانتزاع والتجريد فيه بأن يقال انتزع تعالى من ذاته ربا مبالغة في ربوبيته للنبي صلى الله عليه وسلم لأنه يلزم الأمر بالصلاة للرب المنتزع ، والثالث كالمثال الذي نحن بصدد البحث فيه وهو " لئن بقيت لأرحلن بغزوة .. إلخ " فإن المتكلم بهذا الكلام يحتمل أنه قصد المبالغة في وصف نفسه بالكرم حتى انتزع من نفسه كريما آخر فيكون تجريدا ويحتمل أنه أراد التنطع في التعبير وتحويل الكلام من أسلوب إلى أسلوب آخر جديد فيكون التفاتا وأما كون الالتفات والتجريد يجتمعان في مادة قصدا فلا يصح "(٢).

ويعبر **السيد الشريف** عن هذا الأمر بقوله :

" فإن قيل كلام المفتاح حيث قال في بيان الالتفات " فأقامها مقام الصلب " يدل على أنه تجريد أيضا فيجتمعان . قلنا معنى كلامه أنه أقام نفسه مقام المصاب ، لا أنه جرد منها مصابا آخر ليكون تجريدا فما ذكره فائدة إطلاق لفظ المخاطب على المتكلم وبيان النكتة الخاصة بالالتفات في هذا الموضع ، وإن شئت زيادة توضيح . فاعلم أن قوله

---

(١) السيد الشريف : حاشية السيد الشريف على المطول ، ص ٤٣٣ .

(٢) محمد بن عرفة الدسوقي:حاشية الدسوقي(ضمن شروح التلخيص)، ٤ / ٣٥٣ ، و ينظر: ابن يعقوب المغربي مواهب الفتاح(ضمن شروح التلخيص) ، ٤ / ٣٥٣ .

" تطاول ليلك " إن حمل على الالتفات كان فيه إيهام الخطاب ، و ملاحظة أن المراد به نفس المتكلم ، و لم يكن هناك مبالغة في اتصافه بالمحزونية بطريق انتزاع محزون آخر منه و إن حمل على التجريد كان فيه دعوى الخطاب و إظهار أن المراد به مغاير للمتكلم منتزع منه ، و كان فيه مبالغة في اتصافه بالمحزونية بطريق الانتزاع "(١).

و ما ذهب إليه ابن يعقوب لا يختلف كثيرا عما ذهب إليه التفتازاني ، بل نراه يسير على ما سار عليه من رأي ، و يتضح ذلك جليا من خلال تعقيبه على قول الشاعر " فلئن بقيت..... البيت " ، بقوله :

" و ينبغي أن ينتبه هنا إلى أن المتكلم بنحو هذا الكلام مما يتبادر منه أنه أقيم الظاهر فيه مقام المضمر : يحتمل أن يقصد المبالغة في وصف نفسه بذلك الوصف كما وصف نفسه بالكرم هنا ، ثم بالغ حتى انتزع من نفسه كريما آخر ، و قد دلت قرينة المدح هنا على قصد ذلك ، لأن المبالغة في المدح أنسب له فيكون تجريدا ، كما قررناه و يحتمل أن يريد مطلق التنطع في التعبير ، و تحويل الكلام من أسلوب إلى أسلوب ليتجدد فيمال إليه و لا يمل ، فيكون التفاتا ، و المعنيان لا تنافي بينهما فيمكن أن يقصدهما المتكلم معا فيكون في الكلام تجريد و التفات "(٢).

" و الحق أن الالتفات إن شرط فيه الاتحاد حقيقة و من كل وجه من غير اعتبار المخالفة أصلا ، كان منافيا في القصد للتجريد ، لوجود المخالفة فيه ، لأن المعنى المجرد قد اعتبر غير المجرد منه و إن شرط فيه وجود مطلق الاتحاد في نفس الأمر ، صح معه اعتبار

---

(١) للسيد الشريف ، حاشية السيد الشريف على المطول ، ص ٤٣٣ .
(٢) ابن يعقوب المغربي ، مواهب الفتاح (ضمن شروح التلخيص) ، ٤٠/ ٣٥٢ .

المخالفة المصححة للتجريد الدال على المبالغة ، و يعتبر الاتحاد في نفس الأمر المصحح لقصد التنطع في التعبير ، و قصد تجديد الأسلوب زيادة في حسن الكلام " (١).

ولعل ذلك ما دعا الدسوقي إلى القول :

" إن التنافي إنما يأتي لو كان المقام مقتضيا لهما بجهة واحدة - و أما اجتماعهما في مادة كل واحد باعتبار فلا ضرر فيه " (٢).

و من خلال ما تقدم يتضح لنا أن العلاقة التي تجمع بين التجريد و الالتفات يمكن التعبير عنها بالقول :

إن الضمير يعد هو المرجعية الأساسية التي تقوم عليها تلك العلاقة ؛ و مرد ذلك : أن بنية الالتفات ترتكز على التغاير في المستوى السطحي للسياق ، و التوافق في مستواه العميق ، فقد تختلف العبارة ، و لكن يظل المعبر عنه ثابتًا لا يتغير ، بينما تقوم بنية التجريد على تعميق المفارقة و التغاير في مستوى السياق السطحي و العميق لتفعيل الانفصال بين المجرد والمجرد منه ، تسليما بأن بنية التجريد لا ترتكز على أساس وحدة الدلالة أو المعنى بين المجرد و المجرد منه .

* * *

(١) نفسه : ٤ / ٣٥٣ .
(٢) محمد بن عرفة الدسوقي: حاشية الدسوقي (ضمن شروح التلخيص) ، ٤ / ٣٥٢ .

obeikandl.com

(ب) وظيفة التجريد :

أشرنا - منذ قليل - إلى أن **أبا علي الفارسي** هو أول من سمى هذا النوع بالتجريد وهنا نشير إلى أن **ضياء الدين بن الأثير** هو - فيما يبدو - أبرز من عنى ببيان القيمة الفنية لتلك الظاهرة ، مؤدى رأي **ابن الأثير** في ذلك أن التجريد يحقق فائدتين ، عبر عنهما بقوله :

" وقد تأملته ، فوجدت له فائدتين إحداهما أبلغ من الأخرى :

فالأولى: طلب التوسع في الكلام، فإنه إذا كان ظاهره خطابا لغيرك، وباطنه خطابا لنفسك ، فإن ذلك من باب التوسع وأظن أنه شيء اختصت به اللغة العربية دون غيرها من اللغات .

والفائدة الثانية : وهي الأبلغ ، وذاك أنه يتمكن المخاطب من إجراء الأوصاف المقصودة من مدح أو غيره على نفسه ، إذ يكون مخاطبا بها غيره ، ليكون أعذر وأبرأ من العهدة فيما يقوله غير محجور عليه "(١).

ويزيد **الخطيب القزويني** وظيفة أو فائدة أخرى للتجريد خلال تعريفه له بقوله :

" أن ينتزع من أمر ذي صفة أمر آخر مثله في تلك الصفة ، مبالغة في كمالها فيه "(٢). وهي المبالغة في كمال الصفة ، وهو ما عبر عنه **السيد الشريف** بقوله :

" والمقصود من التجريد المبالغة في كون الشيء موصوفا بصفة وبلوغه النهاية فيها بأن ينتزع منه شيء آخر موصوف بتلك الصفة "(٣).

وقد سار **الخطيب القزويني** في هذا الصدد كثير من البلاغيين الذين جاءوا بعده أمثال ياقوت الحموي ، وعبد الرحيم العباسي ، ..... وغيرهما .

---

(١) ضياء الدين بن الأثير : المثل السائر ، ٢ / ١٦٠ .
(٢) القزويني : الإيضاح ، ١ / ٥١٢ ، وانظر : التلخيص ، ص ٣٦٨ .
(٣) السيد الشريف : حاشية السيد الشريف على المطول ، ص ٤٣٣ .

و يضيف د. بسيوني عبد الفتاح فيود ، أن من بلاغة أسلوب التجريد :

" إثارة الخيال و تنشيط الأذهان و تنبيه العقول بما في أساليبه من تصوير و تخييل و من تنويع و تلوين في الصياغة ، و لا يخفى عليك أن مثل هذا الكلام يقع في النفس موقعه،لأن من شأن العقول التي أوقظت و نبهت أن تصغي بعناية ، و عندئذ يقع بها الكلام بما فيه من تصوير و تخييل موقعا حميدا "(١).

و بذلك يتضح لنا أن فائدة أسلوب التجريد لا تقتصر كما يبدو في تعريف القزويني على مجرد المبالغة في كمال الصفة ، و بلوغها بشأوا لا يضاهيها فيها نظير، بل تتسع لتشمل فوائد عدة ، منها ما يعود على المتكلم و منها ما يعود على المتلقي ، فأما ما يعود على المتكلم منها :

١ - يشيع التجريد جوا من الحرية في التعبير عن الآراء ، و الأقوال المختلفة مهما تعارضت مع طبيعة المناخ السائد بعاداته ، و تقاليده ، و مكوناته ؛ إذ يتمكن المتكلم من إجراء الأوصاف المقصودة من مدح أو هجاء أو غيره على لسان الآخر، فلا يتعرض للوم أو عتاب أو مؤاخذة .

٢ - يكسب المتكلم درية في صياغة الجملة ، و مهارة في حبك العبارة و يجعله قادرا على الأخذ بنواصي الكلم للتعبير عن المعنى المراد ، بما يشبه الرمز، دون الوقوع في المحظور من القول ، فيكون التجريد بذلك انعكاسا لقدر المتكلم اللغوي ، و دليلا على تفوقه البلاغي .

---

(١) د.بسيوني عبد الفتاح فيود : علم البديع دراسة تاريخية و فنية لأصول البلاغة و مسائل البديع ، مؤسسة المختار للنشر و التوزيع ، القاهرة ، ط٢ ، ١٤١٨ هـ ، ١٩٩٨ م ، ص ٢٠٨ .

٣ ـ يثري التجريد جانبي الإقناع والإمتاع الجمالي للمتكلم ، من خلال الفرار من موقف كبت المشاعر ، إلى المواجهة والبوح بها ؛ ما يضفي بدوره على المتكلم حالة من حالات القبول الذاتي والاطمئنان النفسي .

وأما ما يعود على المتلقي ، منها :

١ ـ يجعل ذهن المتلقي في حالة نشاط دائم ، في محاولة للوصول إلى المعنى المراد الذي يصدق عليه قول المتكلم .

٢ ـ يطلق العنان لخيالات المتلقي وتصوراته ، التي يقوم بتأويلها تبعا لحالته المزاجية والانفعالية ، وكذلك الثقافية ، لتتلاءم مع طبيعة الموقف المعبر عنه .

٣ ـ عندما يطلق المتكلم خطابه يضع دور المتلقي في الاعتبار ؛ لأنه هو الذي يتوجه إليه المتكلم بالخطاب ، ويراعي اختيار الوسائل التي تؤثر فيه ، بشكل يحدث من خلاله نوع من التفاعل والاستجابة ؛ بما يجعل دور المتلقي يتعدى حدود المستقبل إلى المشارك في عملية الإبداع ذاتها .

* * *

(ج) موقع التجريد في خريطة البحث البلاغي :

إن المتأمل في موقع التجريد في خريطة البحث البلاغي يجد ـ من خلال تصفحه لكتب التراث البلاغي ـ أن التجريد ينسب تارة إلى علم البيان و أخرى إلى علم البديع و هو لون من ألوان التأرجح تعرض له في مسيرة البحث البلاغي .

" و من قال إنه من البيان قال مرة إنه تشبيه و أخرى إنه استعارة تصريحية و ثالثة إنه استعارة بالكناية " (١) . ولعل هذا ما عناه **ابن الأثير** في تصوره للتجريد الذي يصرح بأنه : قد نقل هذا المعنى إلى نوع من أنواع علم البيان " (٢) . و تصور **العلوي** (صاحب الطراز) له حيث عده نوعا من : " محاسن علوم البيان ولطائفه " (٣).

أما لدى **السكاكي** و من تبعه من البلاغيين ، و نحا نحوه في تحديد المصطلحات ووضع العناوين و تحديد ملامح كل منها على حده ، فنجده قد عالجه في نطاق بحثه لعلم البيان ، الذي أصبح بعض مباحثه لدى تابعيه هي ميدان " علم البديع " ، و مرد هذا التأرجح ـ فيما يبدو ـ أن ظاهرة التجريد في تصور السكاكي ـ حسبما يبدو من إدراجها في علم البيان ـ ترقى فتكون ذات دور فاعل في بلاغة التعبير ، على اعتبار : " أن صاحب علم البيان له فضل احتياج إلى التعرض لأنواع دلالات الكلم " (٤) ، و تنحط لدى تابعيه فلا تعدو أن تكون مجرد زينة خارجية أو تجميل شكلي للأسلوب ، فتأخذ شكل الوجوه المخصوصة التي عبر عن وظيفتها **السكاكي** بقوله :

" كثيرا ما يصار إليها ، لقصد تحسين الكلام " (٥).

---

(١) د ، عبد العظيم المطعني : البديع من المعاني و الألفاظ ، ص ٩٦ .
(٢) ضياء الدين ابن الأثير : المثل السائر ، ٢ / ١٦٠ .
(٣) العلوي : الطراز ، ٣ / ٧٣ .
(٤) السكاكي : مفتاح العلوم ، ص ٣٢٩ .
(٥) ينظر : السكاكي : مفتاح العلوم ، ص ٤٢٣ .

obeikandi.com

ولعل في قول ابن يعقوب المغربي عن المبالغة المفيدة للتجريد، ما يفسر أو يبرر إدراج التجريد ضمن مباحث البديع. الذي يعرفه الخطيب القزويني بأنه: " علم يعرف به وجوه تحسين الكلام، بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة "(١) وذلك بقوله:

" إن المبالغة المفيدة للتجريد تكفي للحسن ومتى زيد عليها ما أوجب العكس صار الكلام كالرمز وصار في غاية البرودة بالذوق السليم "(٢).

والحق أن هذا التأرجح إزاء أسلوب التجريد هو أمر يثير التعجب حقا، خاصة لدى هؤلاء البلاغيين الذين " أقاموا الحدود ونصبوا الحواجز بين مصطلحات تلك العلوم الثلاثة "(٣)، أما عن الآراء التي قيلت بشأن هذا التأرجح فلا تعدو أن تكون " ضربا من الفروض الذهنية التجريدية التي غطت مساحة عريضة من ميدان البحث البلاغي في تلك العصور المتأخرة فأصابته بغير قليل من التحجر والجمود "(٤) ولعل هذا ما دفع د. محمد نايل أحمد للتساؤل: " وهل ذكرهم للتجريد، وحسن التعليل في فن البديع، يخرجهما عن أن يكونا من مباحث علم البيان بابتنائهما على التشبيه؟ "(٥).

ولعل. كذلك. تكون الإجابة في قول د. عبد العظيم المطعني:

" في التجريد خلاف بين العلماء. هل هو من مباحث البديع أو البيان إلا أنه بمباحث البديع أولى "(٦).

---

(١) القزويني: التلخيص في علوم البلاغة، ٣٤٧.
(٢) ابن يعقوب المغربي: مواهب الفتاح (ضمن شروح التلخيص)، ٤ / ٣٥١.
(٣) د. حسن طبل: أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية. ص ٢٩.
(٤) نفسه: ص ٢٩.
(٥) د. محمد نايل أحمد: البلاغة بين عهدين في ظلال الذوق الأدبي وتحت سلطان العلم النظري، دار الفكر العربي القاهرة، ١٩٩٤ م، ص ٢٧١.
(٦) د. عبد العظيم المطعني: البديع من المعاني والألفاظ. ص ٩٦.

على أننا لو نظرنا إلى طبيعة الميدان الذي حدده هؤلاء البلاغيون أنفسهم لكل علم من تلك العلوم الثلاثة ، وجدنا - بحق - ما يبرر هذا التأرجح في نسبة التجريد إلى علمي البيان والبديع ،فميدان علم البيان حسب تعريفهم له هو : " المجاز والكناية والتشبيه"(١) والذي له ظل كما أسلفنا - في بعض صور التجريد ، وكذا علم البديع الذي : " يدور حول القيم الجمالية التي تنشأ عن البنى الصوتية للألفاظ كالجناس أو السجع أو الازدواج ... أو عما يتحقق بين دلالات الألفاظ أو معانيها المعجمية من علاقات التضاد أو التشابه كالطباق أو المقابلة أو الجمع أو مراعاة النظير أو ما إلى ذلك "(٢) ، أي إن كلا العلمين يدور في مجال المعاني التي تتشكل في إطارها صورة التجريد حسب تصورهم .

* * *

(١) ينظر : القزويني : التلخيص ، ٢٣٧ : ٢٣٨ .
(٢) د.حسن طبل : أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية ، ص ٢٩ .

obeikandl.com